السبحة في الشرق

L'usage du chapelet en Orient.

السبحة قديمة في ديارنا . واول من استعملها في الشرق الادنى اليهود فانه كانوا يسمونها « ماه بركوت » اي « المائة بركة » وذلك لانهم كانوا يسبحون بها الله مائة تسبحة . ولما ظهرت النصرانية اخذها المسيحيون عنهم . ثم جاء الاسلام فاقتبسها الحنفاء من النصارى منذ العصر الاول من نشوء الدين المحمدي . وقد ذكرها الخليل في كتاب العين قال: السبحة : « خرزات يسبح بعددها . » وانت تعلم ان الخليل عاش ٧٤ سنة وتوفي سنة ١٦٠ وقيل ١٧٠ وقيل ايضاً سنة ١٧٥ للهجرة « الموافقة لسنة ٧٧٧ و٧٨٦ و ٧٩١ م » ولو كان المسلمون قد اتخذوها في عهده لأشار اليه لكن الظاهر من سكوته عن التنبيه انها كانت معروفة قبله . والا فمن العادة الجارية عند اللغويين ان يشيروا الى حديث الدخول من الفاظ اللغة ولهذا تقول انها كانت معروفة في القرن الاول من الاسلام . والى ذلك يشير صاحب تاج العروس اذ يقول : السبحة : بالضم ، خرزات تنظم في خيط للتسبيح تعدّ . وهي كلمة مولدة (١) قاله الازهري . وقال الفارابي وتبعه الجوهري : السبحة التي يسبح بها . وقال شيخنا: انها ليست من اللغة في شيء « كذا . قلنا: وفي هذا الكلام نظر » ولا تعرفها العرب « كذا » وانما حدثت في الصدر الاول اعانةً على الذكر وتذكيراً وتنشيطاً . اه .

(١) اي انها لم تكن معروفة في عهد الجاهلية مع ان الظاهر من استعمال النصارى لها انها من عهد الجاهلية واسمها في اصطلاح النصارى الارمنيين يشبه اسمها العربي الا انه ليس بيقيناً نص منظوم او منثور يرتقي الى عهد الجاهلية لؤيد به رأينا هذا . ولعل الزمان يميط لنا النقاب عن هذه الحقيقة

واما الافرنج فقد اخذوها من نصارى الشرق في الحرب الصليبية الاولى « اي في نحو سنة ٤٩١ هجرية = ١٠٩٧م » نقلها اليهم بطرس الناسك الشهير الذي هو اول من نادى بالحرب الصليبية . ومما سهل دخولها وبوع الغرب انهم اولجوا في الاديرة رهباناً مساعدين للرهبان القسوس واغلبهم يجهلون القراءة والكتابة فالزموهم باتخاذ السبحة وبعدّ الصلوات الربية عليها والصلاة الربية هي « ابانا الذي في السموات » وكانوا يسمونها يومئذٍ باتنوتر Patenôtres اي « ابانا » ثم غيروا اسمها ودعوها Chapelet اسيے قبعية لانهم كانوا يتخذونها على هيئة اكليل من الورد المنظوم ويضعونها على رؤوسهم . ومهما يكن من امرها فان الافرنج كانوا قد اتخذوا السبحة من مكملات ملابسهم في ذلك الاوان . وكانوا يشدونها بمناطقهم . وقد اوجب بعضهم اتخاذها في كل آن ومكان وتعهدوا لذلك بعهد وسموا انفسهم «المسبحين» وبالافرنجية Patenôtriers ثم قلّ اتخاذها وتقلدها رويداً رويداً لاسيما عند من لم يتقيد بنذر رهبانية .

والانكليز يسمونها Chaplet كالفرنسويين اي قبعية . والالمانيون يسمونها Rosen-Krauz اي اكليل ورد . والايطاليون سموها اولاً Capellino اي قبعية لكنهم يسمونها الان Corona اي اكليل . ومن اسمائها بالعربية المسبحة بكسر الاول . وهي لم ترد في دواوين اللغة لكنها وردت في عدة كتب والعوام تستعملها وتفتح الميم . وقد جاءت في كتاب الف ليلة وليلة من طبعة الافرنج ٧ : ١٦ ، ٥ . وفي بعض حواشي الزنجاني . وفي تاريخ المقري من طبعة الافرنج ١ : ٥ . وفي عدة معاجم فرنسوية عربية . — ويسميها

الايرانيون هزاردانه اي الف حبة . ويسميها الترك « التسبيح » وهذه الكلمة ماخوذة من العربية من مصدر سبح . ومن العجب ان الترك يتصرفون بعض الاحيان في لغة العرب على خلاف مايجري عليه العرب . فان العرب سموا هذه الخرزات المنظومة سبحة وهي اسم مصدر لفعل سبح المثقل العين . ولم يسموها تسبيحاً وهو المصدر القياسي . اما الترك فانهم لم يجاروا العرب في اتخاذ الفاظهم بل كثيراً ما اخذوا منهم الشيء ذاته وسموه باسم عربي آخر كما هو الامر في التسبيح . وهو غير معروف في لغة العرب وهو وان كان مصدراً لكنهم لم يستعملوه لهذه الخرزات . وقد جاء في حاشية تاج العروس لمادة س ب ح : « السبحة مولدة . واطلاق التسبيح عليها غلط . انظر ص ١١٢ من الدرر المنتخبات المشورة . » كذا . قلنا : والاصح من الدرر المنتخبة المنثورة . على اننا لانجسر ان نخطئ من يستعمل هذه اللفظة بهذا المعنى لانه اذا جاز لبعضهم ان يسموا الشيء بلفظ « اسم المصدر » لانرى كيف لايجوز لغيرهم ان يسموه بلفظ « المصدر » وقد نقل عن العرب الفاظ كثيرة مسماة بالمصدر كقولهم : التنبيت والتلبيب والتمتين والتقسيط والتنبيه والنودية والتنهية والتزبرة . الى غيرها وهم في كل ذلك لايراعون معنى المصدر بل يذهبون في وضعها مذهب الاسماء الصرفة على اننا لانتكر ان الجري على مصطلح العرب خير من العدول عنه الى وضع لم تضعه والى الجري في طريق اونهج لم تالفه . لانك :

اذا ماتيت الامر من غير نهجه . ضللت وان تقصد الى النهج تهتدي